كلمة آل الراحل الأستاذ الدكتورعبد الكريم الأشتر

ألقاها ولده الدكتور محمد الأشتر

أيها السادة

في حضرة غيابه تضيق اللغة ويختنق الكلام.

وفي أنفسنا تتراكب القيم وتطوى الصحف وتتغيم الأحلام.

فحين يترجل فارس اللغة العربية، وقد ترجل، تهيم الكتابة وتنكس الأقلام.

فيا فارس العربية المترجل:

كيف أقول في حضرة غيابك وأنت من دانت له الريشة والدواة، وطوع بنانه غفت المعاني فانبسطت وتداورت وانكمشت كما أراد!.

كيف أخطب في حضرة غيابك ولطالما قلت أنت فصل الخطاب!

فأن أقول اليوم واجب لاأدعي حسن إتمامه ولا كمال إعداده وإن شرفت محاولًا، وسموت بالجلال الذي أحسه من حولي، ورجوت أن تسمعني، بعد أن كنت تسمع، وتغفر زلاّتي، ولطالما غفرت.

في مخيلتنا يقبع مكانك المعتاد، وتفتح مفكرتك الصغيرة، وتحترق لفائف تبغك، وترتشف قهوتك، وفي مخيلتنا تجالسنا رقيقًا رفيقًا، متجاوزًا كلَّ اللاءات، عابرًا كل حدود الاختلاف، لتجسر الهوة بين جيلين، فيصير اللقاء جماع أبوة وصداقة ومزيج طرفة ونصح جميل.

قرأتك تكتب عام سبعة وتسعين كلامًا أستعير منه الآن:

لو كنت شاعرًا:

لغزلت من خيوط الشمس وشاحًا لكتفيك

ولجعلت من فتور جفنيك فتور الغروب

وملأت حناجر الطيور من عذوبة ضحكاتك

فأصبح الكون يسطع من لألاء وجهك

وكحلته بالحاجبين

فما وجدت يا أبي كلامًا يليق بك خيرًا من كلامك، ولا صوغًا أدق من صوغك، واخترت أن أكمل من حيث انتهيت أنت، معتذرًا منك، فما يقف مثلي قائلًا بين يديك، معتذرًا لأكمل فأقول:

لو كنت شاعرًا:

لهمهمت كلامًا ضائعًا بين شفتين

وتذكرت كم حنوت ولطفت

كم أصبحتَ إذ أمسيت

نديمك ليلٌ وحبر وورق

ودفتر مشروع، وحمى كتاب

وعينان اثقلتا...بدمعٍ وأرق

وإغفاءةٍ وصحو ونصف نعاس

وجنون قِرطاس

يهدُّ المنكبين

لو كنت شاعرًا:

لرسمتك مطوي الظهر كقوس النشَّاب

صلب العزيمة كالوترْ

ونحتُّ ابتسامتك في غمرة الصِّعاب

لجينًا وقمرْ

ونثر ياسمين

ولانتحلت قسوتك حين تقسو

ولينك حين تلين

وزعمت أنك ملأت كأس الأبوة

حتى الشفتين

لو كنت شاعرًا:

لتذكرت قولك في طائرك الر ائعْ "رحمها الله"

يسبح في السموات العالية

تمسح بمنقارك منقارَه اللامعْ

ويقضي في قفصك دهرًا يبوحْ

تطيران.....

تجوبان الآفاق معًا، روحًا وروحْ

تستحضران لقيمات الأفراخِ الفتية

حتى ينمو الريشْ

وتخفق الأجنحة جناحين جناحين

لو كنت شاعرًا:

لتتبعت عينيك تطوفان حول أحفادك

مرات ومرات

طواف الحجيج في أداء المناسك

تغمرهم بلهفتك، تغشاهم برحمتك

تمسح الدموع فتكشف المسالك

وتغمز تستزيد حفيدًا.....حفيدين

لو كنت شاعرًا:

لشممت رائحة غبار الصحائف

تملأ مكانكَ، تشغل زمانكَ

تزاحم دخان التبغ في رئتيكْ

وتنسمت عبق القهوة في فنجانكَ

حلوةً....مغليةً

تراقص أبخرتها قلمك بين يديك

يحبو....يجري ويغفو بين الإصبعين

لو كنت شاعرًا:

لأحسست بالألم يخترق حشاك

في كل أزمات الوطنْ

يتلوى في الخاصرة

ينخر النخاعْ ينذفع بركانًا

تخمده أنفاسك الحائرةْ

وشهدت كم حاصرتك حمر الخطوط

وسود الشروط

وأحكام نشر جائزة

وكم ضمنت بين المعاني

علَّهم يقرؤون

بين السطرين

لو كنت شاعرًا:

لأشعلت بغضك للزمن الرديء سراجًا

وصببت الزيت فيه إلى الأبدْ

ليجلوَ حرقة الكذب والمداورةْ

وقيح الاستحكام والاستكبار والمناورة

فتزأرَ الحناجر وتتجاسرَ القلوب

ويفرَّ المخرزُ من العينينْ

لو كنت شاعرًا:

لقلت كل هذا ولكني طبيبٌ

جلَّ ماأستطيع أن أنقل لكم بعضًا مهمًا مما كان يقول.

كان يقول:

- أكثر المخلوقات غربة عن نفسه: الإنسان.
- بعض الناس يقتله الذم وبعضهم يقتله المديح.
- الأحزان الثقيلة لاتحملها غير البسمات.
- قد يكون العقل أضعف قوى النفس أثرًا في حياة الإنسان.

وكان يقول:

- أليس غريبًا أن تكون الثروة فينا مصدرَ ضعف وهي في تاريخ الأمم كلّها مصدرُ قوة ؟

وأخيرًا كان يقول:

- إننا مسؤولون أمام أنفسنا قبل كل شيء.
- مسؤولون أمام التاريخ الذي كتبه لنا آباؤنا.
- مسؤولون أمام أجيالنا القادمة.
- أما التبعة أمام الله فمتروكه للضمير.

أيها السادة

قلة في الناس من تتغير الدنيا بعد رحيلهم وأجرؤ أن ازعمَ أنك، عبدَ الكريم الأشتر كنت واحدًا منهم، فإن هي جنةٌ وربْ، فهي لك وهو أرحم الراحمين.

وإلا ففيما تركت من شاردات الإبداع في فنون الأدب وفيما حفرت من أثر عميق في دروب الخلود بعض من سلوان.

أيها الموت ترفق فقد استودعناك الأبَ الرؤوف، والزوج الخليل، والصديقَ الأمين، والمعلمَ الناصح، والعربيَّ الغيور.

أيها الموت ترفق فبين ظهرانيك اليوم رجلٌ أحبَّ الحياة وعاين حلوَها ومرَّها، عركته فما انكفأ، وغازلته فما استطاب، غرس فينا فيما غرس ثقافة الانتصار، واقتلع منا ثقافة الهزيمة.

آمن بالخيال واطمأن أنه سيقود الأمة في النهاية وأن ما يكبل القلم يعجز عن تكبيل الفكر،وفي بعض صباحاته الأخيرة احتسى القهوة مع تباشير الخلاص.

ترفق به أيها الموت فلطالما ترفق، وأعنه فلطالما أعان، وأبلغه أننا هنا اليوم شاكرون، بفضله معترفون، وبدلالته سائرون.

ترفق به أيها الموت وأبلغه أن له في أعناقنا بيعة لا تنقضي حتى نلحق به، وحتى يحين اللحاق؛ سنبقى نعلن وبكل الفخار:

نعم إننا نحن أولاد عبد الكريم الأشتر.

أيها الحضور الكريم، عائلة الراحل وهي تحاول التعافي من جرح الخطب والتعالي على ألم المصاب لا تجد في حضوركم إلا عزاءً نتقبله، ولا في مشاركة الأساتذة الأجلاء إلا تكريمًا يستأهله ولا نستأهله.

فدمتم، أشكركم، والسلام عليكم.